

ولقد كان رحمه الله فوق الرتبة ، ماثلاً إلى السمرة ، خفيف اللحية^(١) ، ويظهر أنه كان يميل إلى التزين ، فقد « كان يخضب بالحناء »^(٢)

ولقد أخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول^(٣) ، والثوري^(٤) . ولقد زاد عليهم أبو زكريا النووي صاحب كتاب تهذيب الأسماء رجالاً من التابعين أهمهم قتادة ، ونافع مولى ابن عمر ، والزهرى ، ومحمد بن المنكدر^(٥) . وأهم تلاميذه : عبد الله ابن المبارك ، وهقل^(٦) وهذا الأخير أصدق الرواة وأثبتهم عن الأوزاعي ، وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهرى وغيرهم^(٧)

كان الأوزاعي من تابعي التابعين^(٨) ، وقد قال الذهبي فيه : « هو إمام أهل الشام » وفي موضع آخر يقول : « كان ثقة مأمونك صدوقاً ، فاضلاً حبراً ، كثير الحديث والعلم والفقه »^(٩) ويقول ابن خلكان : « هو إمام أهل الشام لم يكن بالشام أعلم منه »^(١٠) . ويقول النووي : « كان إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة »^(١١) . ومما يدل على عظم مركزه في الفقه أنه أجاب في سبعين ألف مسألة فقهية ، وقيل ثمانين ألفاً^(١٢)

ومما يدل على علو مقامه وتقدير العلماء له ما ذكره ابن خلكان من أن « سفیان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي ففرج حتى لقيه بذى طوى ، فحل سفیان رأس بديره من القطار ووضع على رقبته فكان إذا مر بجماعة قال الطريق للشيخ »^(١٣) ، وناهيك بمثلة سفیان الثوري ورفيع مقامه في العالم الإسلامي . ولا ينبغي عن البال أنه كان فضلاً عن إشتهاره بالفقه إماماً في الحديث^(١٤) . ويقول كولدزهيبر : روى عبد الرحمن بن المهدي

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٢) نفس المصدر (٣) طبقات الحفاظ ص ٣٩ (٤) ابن خلكان ص ٣٤٦ (٥) النووي ١ : ٣٨٢ (٦) النووي ١ : ٣٨٤ (٧) النووي ١ : ٣٨٢ يظهر أن قتادة والزهرى كانا معاصرين للأوزاعي فسع عنهم وبذلك ندم أسانده ، ومن ثم روي عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نندم من تلاميذه (٨) النووي ١ : ٣٨٢ (٩) طبقات الحفاظ ١ : ص ٣٩ (١٠) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (١١) النووي ١ : ص ٣٨٢ (١٢) النووي ١ : ٣٨٤ (١٣) النووي ١ : ٣٨٤ (١٤) وابن خلكان ١ : ٣٤٦

الأوزاعي

٥٨٨ - ١٥٧ هـ

أحد أصحاب المذاهب المدرسية

بقلم عبد القادر على الجاعوني

هياة الأوزاعي :

يؤخذ من المصادر التي بين أيدينا أن اسمه عبد الرحمن^(١) ابن عمرو بن يحميد^(٢) وكنيته أبو عمرو ، ولقبه الأوزاعي نسبة إلى أوزاع^(٣) ، ولقد اختلف في معنى هذه الكلمة ، فمن قائل إنها بطن من ذى الكلاع من اليمن « وقيل بطن من همدان »^(٤) ، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفرائيس^(٥) . ومهما يكن من أمر ، فإن لقبه نسبة إلى هذه الكلمة ، إذ أن جميع المصادر تتفق على هذا اللقب ولكنها تختلف في حقيقة أصله

ومن الثابت تاريخياً أن مهبط رأسه مدينة بعلبك^(٦) ، وتكاد المصادر تتفق على أنه ولد سنة ٨٨ هـ^(٧)

أما نشأته وحياته فلا نعرف عنهما شيئاً ، لأن المصادر التي بين أيدينا تكاد تكون صامتة كل الصمت ، فهي تتخطى هذا الدور بسرعة هائلة وتبرز لنا « إمام أهل الشام »^(٨) في عصره ، اللهم إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه نشأ في البقاع قلنا إن الأوزاعي ولد في بعلبك ، ونشأ في البقاع ، إلا أنه لم يقض حياته في مهبط رأسه ، وسرعان ما انتقل إلى دمشق خارج باب الفرائيس^(٩) ، ثم ارتحل إلى بيروت^(١٠) تلك المدينة التي قضى بها حياته حتى أدركته الوفاة

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٥ ، النووي ١ : ٣٨٢ ، وطبقات الحفاظ للذهبي ١ : ٣٩ (٢) كذا ضبطها النووي ١ : ٣٨٢ (٣) ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٤) نفس المصدر (٥) النووي ١ : ٣٨٣ (٦) النووي ١ : ٣٨٤ ، ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٧) النووي ١ : ص ٣٨٣ ، ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٨) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٩) النووي ١ : ٣٨٢ (١٠) طبقات الحفاظ ١ : ٣٩

تناقص بمذهب الأمام مالك على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي» (١)

ومن المعلوم ، أن مذهب الأوزاعي هو أحد المذاهب المندرسة ، وبأليت التاريخ أبق على هيكله في طوابعه ، فانه لم يسجل إلا زراً يسيراً من فقهه (٢) لا يُمكننا من الحكم عليه . إلا أن هذا النذر يلقى نوراً على ماهيته ، وقد دلتني قراءته إلى أن اهتمام الأوزاعي بالمسائل الفقهية كان من الوجهة العملية ، ولم يكن كصنوه أبي حنيفة مشتغلاً بالفقه من وجهته النظرية . كذلك دلتني قراءة هذا النذر اليسير إلى أن الأوزاعي لم يكن يستعمل الرأي ، بل إنه - كما فعل غيره - عدل إلى الكتاب والسنة ، ففي كلام الأوزاعي عن « سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل » (٣) وعن « المرأة تُسبى ثم يُسبى زوجها » (٤) وعن « ما عجز الجيش عن حمله من الغنائم » (٥) وعن « قطع أشجار العدو » (٦) - ففي كلامه عن أحكام هذه ، وعن جميع ما ورد في كتاب « سير الأوزاعي » يستعمل الحديث والكتاب

وقد يطول بنا المقام إن ماشينا فهرس الفصل في سرده ، فلا داعي للتكرار ، ومن أراد التثبت فليرجع إلى هذه الأقوال في مظاهرها (٧)

ولقد ذهب بعض المؤرخين ، أمثال كولد زهير ، إلى أن الفقه الإسلامي قد تأثر بالفقه الروماني . وأنا أقول ، إن كان هذا صحيحاً ، فأحذر بالأوزاعي أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أئمة الفقهاء عن الرأي ، ومن أقربهم إلى أتباع الكتاب والسنة . وبذلك قال أبو حاتم : « الأوزاعي إمام متبع لما سمع » (٨) والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الروماني

(البقية على صفحة ٤٣٨)

(١) تاريخ بيروت ص ١٥ (٢) كتاب الأمام للشافعي ٧ : ٣٠٣ - ٣٣٥ تحت عنوان كتاب سير الأوزاعي ، ففي هذا الفصل جملة صالحة عن أقوال الأوزاعي في المسائل الفقهية (٣) كتاب الأم للشافعي ٧ ص ٣٠٦ (٤) نفس المصدر : ٣١٥ (٥) نفس المصدر : ٣٢٣ (٦) نفس المصدر : ٣٢٤ (٧) كتاب سير الأوزاعي ٧ : ٣٠٣ - ٣٣٥ (٨) النووي ١ : ٣٨٤

أن الأوزاعي ليس ثقة في الحديث ، ولكنه يعلم كيف يطبق هذه الأحاديث للحصول على حلول المسائل الفقهية (١)

ولم يكن الأوزاعي يتمتع بمركز ديني كفقيه ومحدث فحسب ، بل يظهر أنه كان يتمتع بمركز ديني رفيع ، فقد ذكروا أنه كان عظيم الشأن بالشام « وكان فيهم أعز من السلطان » (٢) ولعل القصة الآتية تلقى نوراً على ما ذهبت إليه : قال عبد الحميد ابن حبيب بن أبي العشرين : سمعت أميراً كان بالساحل ، وقد دفنا الأوزاعي ونحن عند القبر يقول : رحمتك الله أبا عمرو ! فقد كنت أظنك أكثر ممن ولائي » (٣) . وبعد ، فقد تبين لك من هذه الروايات الكثيرة المحفوظة في الأصول الأدبية والتاريخية ما كان عليه الأوزاعي من الشهرة ، ولا نعرف ، لاندثار مذهبه ، واندفاع المؤرخين في منح المديح والألقاب ، صحة هذه الأقوال ، ولكنها على أية حال تحمل بين طياتها الشيء الكثير عن عظم الأوزاعي وشهرته

والروايات مجمة على أن الأوزاعي كان إمام أهل الشام في عصره ، وأنه كان على جانب عظيم من القدرة في الحديث والفقه ، وتطبيق الأول على الثاني للحصول على حلول للمسائل الفقهية المختلفة

مذهب الأوزاعي :

انتشر مذهب الأوزاعي ، السمي باسمه ، مدة من الزمن في سورية ، وبلاد المغرب ؛ وذكر صالح بن يحيى أن مذهب الأوزاعي دام في الشام نحو مائتي سنة ، وأن آخر من عمل بمذهبه قاضي الشام أحمد بن سليمان بن جندل ، وقد ظلت المغرب متبعة بمذهبه مدة لا تقل عن أربعين سنة (٤)

وسرعان ما انهزم مذهب الأوزاعي أمام غيره من المذاهب ، والسبب في ذلك - كما يظهر - أن الأمراء وأصحاب السلطة ساعدوا غيره من المذاهب نصراً لسياسة أو تحقيقاً لفرض ، كما كانت الحالة مع المذهب الحنفي (٥) ، ويقول صالح بن يحيى « ثم

(١) II P 12 Muham.Studien (٢) تاريخ بيروت ص ١٥

(٣) النووي ١ : ٣٨٤ (٤) صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ص ١٥

(٥) Moslem theology P 98